۞ قال ابنُ القيِّم: وطريقةُ القرآن في مثلِ هذا أن يَقرِنَ النفيَ بالإثباتِ، فينفي عبادةَ ما سوى الله ويُثبتَ عبادتَه، وهذا هو حقيقةُ التوحيد، والنفيُ المحضُ ليس بتوحيدٍ، وكذلك الإثباتُ بدون النفي، فلا يكون التوحيدُ إلا متضمِّناً للنفي والإثباتِ، وهذا حقيقة «لا إله إلا الله». انتهى[1].[2] [٢٩]

[شرح٢٩] وهو كلام موجز واضح، فالتوحيد والإخلاص لله إنما يكون بالنفي والإثبات، النفي «لا إله» للألوهية لغير الله، ونفي الشريك، وإثبات العبادة لله وحده ﷻ، فالنفي المحض ليس بتوحيد بل تعطيل وإلحاد، إذا قال: لا إله، وسكت، فهذا معناه الإلحاد والتعطيل، وإنكار وجود الله ﷻ، وهذا كفر وضلال.

والإثبات المحض كذلك، الله إله لا يكفي، والإله هو ﷻ لكن هناك آلهة كثيرة تعبد من دون الله، فلا يكفي قولنا: الله إله، أو ربنا إله، لا يكفي، فهو إله بلا شك، لكن هل هناك إله معه، هذا هو محل البحث، فلا يكفي هذا إلا بالنفي، ولا يستقيم التوحيد إلا =

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٤١)، ط١. مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٦هـ.

(٢) ص٣٠.

.....

= بالنفي بأن تقول: «لا إله إلا الله»، فبهذا يستقيم التوحيد، تثبت الإلهية لله وحده، وتنفيها عمن سواه وإن كانت موجودة.

وبهذا يعلم بطلان قول من قال: معنى «لا إله» يعني: لا إله موجود ـ قدم خبر موجود ـ وهذا خطأ، فالآلهة موجودة تعبد من دون الله في كل زمان، ولكنها ليست آلهة حق، وإذا قيد وجوده بحق استقام المعنى، لا إله موجود بحق إلا الله ﷻ.

فالمقصود أن التفسير بالموجود فقط من غير تقييد، لا يستقيم؛ لأن الآلهة موجودة في عهد النبي وقبل النبي ﷺ وبعده، الآلهة موجودة الآن أصنام تعبد، وأوثان تعبد، وأشخاص يعبدون، أموات وأحياء، لكن المقصود نفي أحقيتها، وبيان أنها عُبِدت بالباطل كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

هذا هو معنى لا إله إلا الله، فالآلهة موجودة في كل مكان إلا ما شاء ربك، موجودة تعبد من دون الله، من حيوانات، ومن جمادات، ومن أموات، ومن أحياء، وطائفة تعبد القبور ومن فيها، =

.....

= وطائفة تعبد الكواكب، وطائفة تعبد الأصنام، وطوائف تعبد أشياء أخرى، حتى وجد طائفة تعبد الشيطان الآن، جعلوه إلهاً يعبدونه، أعوذ بالله من ذلك.

فالحاصل أن الآلهة موجودة، فالدين والإسلام، والإيمان بأنه لا إله بحق إلا الله، يعني: لا معبود بحق إلا الله ﷻ، وما عبده الناس قديماً وحديثاً كله معبود بالباطل من دون الله، وهذا هو معنى الآية الكريمة في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، وكذلك في سورة لقمان: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان:٣٠].

فالمقصود أن الآيتين تبينان أن المعبود بالحق هو الله وحده، وما سواه معبود بالباطل، وهكذا بقية الآيات*.

---

* س: من قال: إن معنى (لا إله إلا الله) الاستفادة من قدرة الله، وأنه قادر على الاختراع أيكون موحداً؟

ج: لا يكون موحداً لأن المشركين قد أقروا بهذا، أقروا بأن الله =

.....

= متصرف وقادر على الاختراع، ولكن أشركوا به، جعلوا معه اللات والعزى وأشباهها آلهة تعبد مع الله، ويعتقدون فيها الشفاعة إلى غير ذلك.

وهذا معنى كلام كثير من المعتزلة وغيرهم من أهل الكلام: لا قادر على الاختراع إلا الله، لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله، ما خرجوا بهذا عن توحيد المشركين، كذلك: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧] لأن من صفة الإله أنه يحكم بشرعه وما أنزل على رسله، ولهذا يقال: توحيد المتابعة؛ متابعة الرسل، فالحاصل أن الحكم لله وحده ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

فمن جعل حاكماً مع الله فقد أشرك بالله، لكن إن كان الحاكم بالاعتقاد أنه يجوز أو يستحسن هذا كفر أكبر والعياذ بالله، أما إذا فعل بهواه بعض الأحيان لرشوة، هذه معصية كبرى عظيمة، ولا يكون كافراً عند أهل العلم، بل يكون ضعيف الإيمان عاصياً فاعلاً كبيرة؛ لأنه يعتقد أنه مجرم، وأنه ظالم، ولكنه حكم لفلان، أو وثق شهوده بالباطل بالرشوة، فهذا يكون عاصياً وضعيف الإيمان، وجديراً بالعزل والعقوبة.

ولكن لا يكون مثل من استحل ذلك، أو استحسن ذلك، فذاك كافر مرتد، وهذا عاص فاعل كبيرة، نسأل الله العافية.

س: إذا كان الإنسان بوظيفة مثلاً وأُلزِم بحلق لحيته، وهو يعرف أن ذلك محرم فحلقها، فهل يصير بهذا قد أشرك في المتابعة؟ =

.....

= ج: هذه معصية من باب «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1] لكن إذا اعتقد أنه يجوز أن يطاع المخلوق في معاصي الله، وأنه لا بأس بطاعة الملك أو غير الملك أو الشيخ فيما يخالف شرع الله وأنه يشرع، فهذه ردة، أما إذا أطاعه لهواه لأجل مال أو لأجل كذا أو لأجل منزلة، وهو يعلم أن هذا محرم، فهذه معصية.

هذا هو الفرق بينهما، ففعل المعاصي على حالين: إذا فعلها ويعلم أنها معاصٍ فهو عاص، وإذا فعلها وهو يعتقد حلَّها، وهي مما يعرف من الدين بالضرورة أن الله حرم ذلك، فأحل الزنى أو أحل الخمر فهذه ردة عن الإسلام، أما إذا كانت مسألة اختلاف وليس فيها دليل واضح، فليست من هذا الباب، بل هي محل نظر.

س: يدخل في قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]؟

ج: يدخل فيه إذا استحله، إذا استحل ذلك وظهر به، هذا إذا كانت معصية فقط، إذا يعتقد أنها معصية كما يفعل أهل الكبائر وأهل المعاصي.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٣١).

۞ ويَدخل في الكفر بالطاغوتِ بُغضُه وكراهتُه، وعدمُ الرضا بعبادته بوجهٍ من الوجوه.

ودلت الآية على:

١- أن الحكمةَ في إرسال الرُّسُلِ هو عبادةُ الله وحدَه، وتَركُ عبادةِ ما سواه.

٢- وأن أصلَ دينِ الأنبياءِ واحدٌ، وهو الإخلاصُ في العبادةِ لله وإن اختلفت شرائعُهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

٣- وأنَّه لا بدَّ في الإيمانِ من العَمَل ردّاً على المرجِئَةِ[1]. [٣٠]

[شرح٣٠] المرجئة الإيمان عندهم قول وتصديق؛ تصديق بالقلب وقول باللسان، والعمل ليس عندهم من الإيمان وإن أوجبوا العمل، ولكن لا يسمونه إيماناً، وهذا من أغلاطهم، والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الإيمان يشمل الثلاث: العقيدة، والقول، =

(١) ص٣٠.

.....

= والعمل، وأنه يزيد وينقص، كذلك رد على من يقول: إن الإيمان مجرد قول كبعض المرجئة وكالكرّامية وأشباههم، أو مجرد معرفة، كما يقوله طوائف أيضاً *.

* س: هل ثبت أن الحنفية يقولون بالإرجاء؟

ج: المشهور أنهم مرجئة الفقهاء لا يسمون العمل إيماناً، وإن كانوا يرون وجوب العمل، لكن ما يسمى عندهم إيماناً، يقولون: إن قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف:٣٠] يدل على ذلك؛ لأن في العطف المغايرة، إذاً فالعمل غير الإيمان. وهذا غلط عند أهل السنة: لأنه يعطف على غيره، وإن كان جزءاً منه للمغايرة، ويعطف على غيره لكونه ليس منه، بل شيء آخر كجاء زيد وعمرو، فيعطف الخاص على العام ليعلم أنه داخل فيه، وأنه ينص عليه من باب الإيضاح لأهميته، مثل: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] الصلاة الوسطى من الصلوات ولكن لأهميتها ذكرها، مثل: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] «كونوا مع الصادقين» من التقوى أيضاً.

كذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٢٧٧] وإقام الزكاة وإيتاء الزكاة من العمل ومن الإيمان ولكن للتنبيه، كذلك قوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣] =

.....

= معطوف على الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو داخل في العمل التواصي بالحق عمل، والتواصي بالصبر عمل، ولكن لعظم أهميتهما نبه عليهما وفي آية أخرى لم يذكرا لأنهما داخلان في الإيمان وفي العمل.

س: هناك من يعتقد أن أبا حنيفة لم يخالف أهل السنة في مسألة الإيمان.

ج: بعض أهل العلم يقولون: الخلاف لفظي، وأن ما سماه إيماناً هو واجب عليه، من حيث اللفظ، وإلا فهو يوجب ما أوجب الله، ويحرم ما حرم الله، فيكون الخلاف لفظياً، والتحقيق ليس بلفظي وله شأن.

فإن أهل السنة والجماعة يسمون هذا العمل إيماناً، والصلاة تسمى إيماناً، والتواصي بالصبر يسمى إيماناً، والتواصي بالحق يسمى إيماناً، يعني: الإيمان العملي، بحيث يكون ناقص الإيمان إذا ضيع ذلك، وأنه يلزم على ذلك أن من ترك العمل صادق الإيمان كامل الإيمان، ولا يستقيم هذا.

س: لكن أبو حنيفة لا يقول بهذا.

ج: نعم، لا يقول بهذا، لكنه لا يسمي العمل إيماناً.

س: إذاً الخلاف لفظي.

ج: لا، لا يستقيم أن يكون الخلاف لفظياً، لأن الله وعد المؤمن الجنة، فإذا كان عمله من الإيمان، فمعنى ذلك أن المؤمن الذي صدق بقوله وقلبه ولم يأت بالعمل مؤمن يستحق الجنة، وأهل السنة والجماعة يقولون: لا، ما يستحق الجنة إلا بالأمور الثلاثة يكون مؤمناً بالقلب، مؤمناً بالقول، مؤمناً =

.....

= بالعمل، يعني: مؤدياً للواجبات.

س: وفي الحديث، أي: من حيث التوثيق؟

ج: أكثر أهل العلم لا يوثقونه من جهة الحفظ، وإن عني بالقياس والمسائل، وبعض أهل العلم يمشيه في الرواية، لكن المشهور كما قلت: إنه ليس بذاك في روايته، فهو متكلَّم فيه من جهة الحفظ لا من جهة العدالة.

س: ابن حبان ذكره في كتاب «المجروحين»؟

ج: أما ابن حجر فقال في «التقريب»: فقيه مشهور، وأعرض عن البحث في التعديل والتضعيف.

۞ قال: وقولُه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ...﴾ الآية [الإسراء:٢٣] هكذا ثبت في بعض الأصول، لم يذكر الآية بكمالها.

قال مجاهدٌ: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني: وَصَّى، وكذلك قرأ أبيٌّ بن كعب، وابنُ مسعود، وابنُ عباس، وغيرُهم.

وروى ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ : يعني: أَمَر.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ «أنْ» هي المصدريةُ، وهي في محلِّ جرٍّ بالباء، والمعنى: أن تعبدُوه، ولا تعبدُوا غيرَه ممن لا يملِكُ ضَرّاً ولا نفعاً؛ بل هو:

١- إما فقيرٌ محتاجٌ إلى رحمةِ ربِّه، يرجُوها كما ترجُونها.

٢- وإما جمادٌ لا يستجيبُ لمن دعاهُ[1]. [٣١]

[شرح٣١] وإما ميت ليس له تصرف ولا حراك في شيء؛ فمدعوُّوهم بين فقير لا يستطيع شيئاً ـ وكل إنسان عاجز يدعو =

(١) ص٣١.

.....

= رحمة ربه ويرجوه ويخافه – وإما ميت لا إحساس له ولا شعور له في داعيه ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

وإما جماد كالصنم والشجر والحجر والكوكب وأشباه ذلك، فهذه هي معبوداتهم؛ إما جمادات وإما أموات وإما أحياء لا يملكون شيئاً، وكل إنسان وكل حي هو عاجز لا يملك إلا ما ملَّكه الله إياه، فهو في قبضة الله تعالى أو بتدبيره وتصرفه، ليس له ملك في نفسه، بل هو مدَبَّر مصرَّف تحت يد الله ﷻ فكيف يُدعَى من دون الله.

قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ يعني: أمر وأوصى كما قال المفسرون، وإنما قالوا هذا لئلا يظن ظان أن ﴿وَقَضَىٰ﴾ بمعنى قدر وأنه قضى في قدره السابق أن لا تعبدوا إلا إياه، فإن هذا التفسير باطل، ولو كان قضى أن لا يعبد إلا إياه سبحانه ما خالف الناس ذلك؛ فإن القضاء والقدر ماض في العباد، فلو قدر ـ سبحانه ـ وقضى أن جميع العباد يعبدونه ما بقي مشرك في الأرض ولا كافر، وصار الناس كلهم على التوحيد. =

.....

= والواقع يخالف ذلك؛ فعلم أن المراد بالقضاء هو الأمر بالوصية كما في الآيات الأخرى ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء:٣٦] إلى غير ذلك، فقضى هنا بمعنى الأمر والوصية، والتوجيه إلى هذا الخير العظيم، وليس بمعنى القضاء الذي بمعنى التقدير السابق والكتاب السابق أن لا تعبدوا إلا إياه، وإلا لكان هذا باطل من أبطل الباطل.

۞ وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وقضَى أن تُحسِنُوا بالوالدينِ إحساناً، كما قضَى بعبادتِه وحدَه لا شريكَ له، وعَطفُ حَقِّهما على حقِّ الله تعالى دليلٌ على تأكُّد حقِّهما، وأنه أَوجَبُ الحقوقِ بعد حقِّ الله، وهذا كثيرٌ في القرآن، يَقرِن بين حقِّه ﷻ وبين حقِّ الوالدين؛ كقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤].

وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣] ولم يخصَّ تعالى نوعاً من أنواع الإحسانِ؛ لِيَعُمَّ أنواعَ الإحسانِ.

وقد تواترت النصوصُ عن النبيِّ ﷺ بالأمر بِبِرِّ الوالدين، والحثِّ على ذلك، وتحريمِ عقوقِهما كما في القرآن.

ففي «صحيح البخاري» عن ابنِ مسعود، قال: سألتُ النبيَّ، ﷺ: أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاةُ على وَقتِها» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «بِرُّ الوالدين» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «الجهادُ في سبيلِ الله» حدَّثني بهنَّ، ولوِ استَزَدتُه =

= لَزادَني[١].[٢] [٣٢]

[شرح٣٢] قد خرج مسلم أيضاً هذا الحديث فهو في «الصحيحين»، وهو موافق لما في الآية الكريمة من وجوب حق الله، ثم حق الوالدين، فالصلاة من حق الله تابعة للتوحيد، فحق الله مقدم، ثم حق الوالدين بعد ذلك؛ ولكن لعظم حقهما، وكونهما السبب في وجوده بإيجاد الله له ﷻ، وعظيم ما يقومان به من خدمة وإحسان، جعل الله حقهما كبيراً وعظيماً ومقروناً بحقه ﷻ، وجعل الشرك مقروناً بالعقوق؛ لعظم شأن العقوق وخطره، وأيضاً لفساده، وكونه مقابلة الإحسان بالإساءة جعل الله العقوق من الشرك، كما في حديث أبي بَكْرَةَ الثقفيِّ: «ألا أُنبِّئُكُم بأكبرِ الكبائرِ؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين»[٣].

فالمقصود أن البر بالوالدين من آكد الفروض، وعقوقَهما من أكبر الكبائر، ومن المؤلم المحزن في هذا العصر قلة العناية بهذا الواجب، وكثرة من يؤذي الوالدين، ويتعدى عليهما، ويسيء إليهما =

---

(١) أخرجه البخاري: الأدب (٥٩٧٠)، ومسلم: الإيمان (٨٥).

(٢) ص٣١.

(٣) أخرجه البخاري: الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم: الإيمان (٨٧).

.....

= في المقال والفعال، وهذا كله من قلة العلم، ومن قلة البصيرة، ومن ضعف الإيمان أو عدم الإيمان.

وقد يكون من سببه أيضاً جهل الوالدين، وسوء تصرفهما، وعدم صبر الولد على ذلك، فالمقصود أنه قد يترتب من الأمرين من جهل هذا وجهل هذا، أو من سوء تصرف هذا وسوء تصرف هذا، قد يترتب منهما العقوق، فالواجب العناية بهذا الأمر، وتوجيه الناس إليه، وإرشادهم إليه، وتحذيرهم من العقوق الذي يضرهم ويضر مجتمعهم، والله المستعان.

۞ وعن أبي بَكْرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألا أُنبِّئُكُم بأكبرِ الكبائرِ؟» قلنا: بلى، يا رسولَ الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوقُ الوالدين» وكان مُتَّكِئاً فجلسَ، فقال: «ألَا وقولُ الزُّورِ، ألا وشهادةُ الزُّورِ» فما زالَ يُكرِّرُها، حتى قلنا: ليتَه سَكَت. رواه البخاري ومسلم[1].[2] [٣٣]

[شرح٣٣] لماذا جاء في الحديث (حتى قلنا: ليته سكت)؟ أتراهم لا يحبون أن يكرر، حتى قالوا: ليته سكت؟ بل من شدة المعصية، (ليته سكت) إشفاقاً عليه من التعب، وإبقاء عليه لما رأوا شدة غضبه وتكراره، فقالوا: ليته سكت، لئلا يتضرر ﷺ من كثرة تكراره لهذا الكلام، وتحمسه له، وحرصه على تبليغه للناس لا كراهة لكلامه، ولا كراهة لتكراره، ولكن من باب الإبقاء والعطف ومحبة ألا يتألم بشيء، عليه الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه البخاري: الأدب (٥٩٧٦)، ومسلم: الإيمان (٨٧).

(٢) ص٣١.

۞ وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، مَن أحقُّ الناسِ بحُسنِ صَحابَتي؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثم مَن؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثم مَن؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثم مَن؟ قال: «أَبوكَ». أخرجاه[١].

وعن عبدِ الله بنِ عَمرٍو، قال: قال رسول الله ﷺ: «رِضَا الرَّبِّ في رِضَا الوالدينِ، وسَخَطُه في سَخَط الوالدينِ».

رواه الترمذي، وصححه ابن حبان والحاكم[٢].

وعن أبي أُسَيدٍ الساعديِّ، قال: بَيْنا نحن جلوسٌ عندَ النبيِّ ﷺ، إذ جاء رجلٌ مِن بني سَلِمةَ، فقال: يا رسولَ الله، هل بَقِيَ مِن بِرِّ أَبَوَيَّ شيءٌ أَبَرُّهُما به بعدَ موتِهما؟[٣] [٣٤]

[شرح٣٤] أبر من باب فرح، بر يبر إذ برر يبر فيدغم، من باب فرح =

---

(١) أخرجه البخاري: الأدب (٥٩٧١)، ومسلم: البر والصلة (٢٥٤٨).

(٢) الترمذي: البر والصلة (١٨٩٩)، وابن حبان في «صحيحه»: البر والإحسان (٤٢٩)، والحاكم: البر والصلة (١/ ١٥١-١٥٢)، وعندهم: الوالد بدل الوالدين في الموضعين.

(٣) ص٣٢.

.....

= يفرح وعلم يعلم، القاعدة أن الماضي إذا أتى فعل فالمضارع يفعل بالفتحه، إلا في ألفاظ معدودة.

۞ فقال: «نعم، الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عَهدِهما مِن بعدِهما، وصِلَةُ الرَّحِمِ التي لا تُوصَلُ إلا بهما، وإكرامُ صديقِهما».

رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»[1].

والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ، قد أفردها العلماءُ بالتصنيف، وذكر البخاريُّ منها شطراً صالحاً في كتاب «الأدب المفرد»[2]. [٣٥]

[شرح٣٥] وهذا الحديث الجليل عن أبي أُسَيدٍ الساعدي، فيه بيان حق الوالدين بعد وفاتهما.

وقوله: (الصلاة عليهما) يدخل فيها صلاة الجنازة، ويدخل فيها الدعاء، فإنه يسمى صلاة، ومنه الاستغفار، وكذلك من حقهما بعد وفاتهما الإكثار من الدعاء لهما بالمغفرة، والرحمة، ورفع الدرجات، ونحو ذلك. =

---

(١) أبو داود: الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه: الأدب (٣٦٦٤)، وابن حبان (٤١٨).

(٢) ص٣٢.

.....

= ولهذا في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَع به، أو وَلَدٍ صالح يدعُو لَه»[1]، فمن أعظم نفع الولد الصالح أن يدعو لوالديه، ويستغفر لهما، وإذا تصدق عليهما فكذلك، لكن ليس كل أحد يستطيع الصدقة، أما الدعاء فميسور لكل أحد، للفقير والغني.

ومن حقهما كذلك (إنفاذ عهدهما من بعدهما) هذا أمر ثان، وإنفاذ وصاياهما، إذا أوصيا بشيء فمن حقهما وبرهما إنفاذ هذه الوصايا، لكن بشرط أن تكون غير مخالفة للشرع، بل على طريقة الشرع؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولو كان والداً.

فإذا أوصى بوصايا تخالف الشرع لم تنفذ، وإذا أوصى بوصايا، والأم كذلك أوصت بوصايا، وهي موافقة للشرع، نفذت، هذا من حقهما.

كذلك من حقهما صلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وصلة أرحامهما، من عم، وأب لأبيك، وجد، وعمات، وما أشبه ذلك، =

(١) أخرجه مسلم: الوصية (١٦٣١).

.....

= أي: أقارب والديك.

والرابع إكرام صديقهما، إن كان لهما أصدقاء في حياتهم، فمن برهما إكرام أصدقائهما، والإحسان إليهم، بمواساة الفقير، بزيارته، وبالدعاء له، وبالهدية له، وكف الأذى عنه، وما أشبه ذلك.

هذا من إكرام صديق الوالد، وثبت عن ابن عمر ﷺ: أنه كان في طريقه في بعض أسفاره إلى الحجاز، وكان معه حمار يستريح عليه إذا تعب من ركوب البعير، فقابله أعرابي، وسلم عليه، قال: أنت ابن فلان، قال: نعم، فأمر له بالحمار، وبعمامة كانت عليه، فأعطاهما إياه، وقال: إن والد هذا كان صديقاً لعمر، فقال بعض الحاضرين: لو أعطيته دون ذلك؛ لأن الأعراب يكفيهم الشيء اليسير، فقال: لا، إن والده كان صديقاً لأبي، فأردت أن أكرمه بهذا الشيء[1]. فالمقصود أن إكرام أصدقاء الوالد من بر الوالد*.

* س: كيف يجمع بين صلة الرحم مع العصاة وبين الحب في الله والبغض في الله؟ =

(١) أخرجه مسلم: البر والصلة (٢٥٥٢) (١١) و(١٣).

.....

= ج: لا منافاة بين الحب في الله والبغض في الله، وصلة الرحم، أسماء بنت أبي بكر كانت أمها كافرة، وهي تريد مساعدتها، فاستشارت النبي ﷺ، قالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت عليَّ، وهي راغبةٌ، وهي لا تزال على الشرك، أفأصِلُها؟ قال النبي ﷺ: «صِلِيها»[1]، فوصل الرحم قد يكون من أسباب إسلام الوالد إذا كان كافراً، ومن باب تأليفه على الخير.

كذلك ورد في القرآن الكريم، يقول جل وعلا: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

وكان عمر يهدي إلى أخ له مشرك في مكة[2].

والحاصل أن صلة الأقارب والإحسان إليهم، وهم ليسوا حرباً لنا، وفي حال أمن ومعاهدة وصلح أو ذمة، لا تنافي بغضهم في الله، وهذا بإجماع المسلمين.

وليس هناك نزاع بحمد الله أن يصل المؤمن أرحامه ويواسيهم ويحسن إليهم، ولو كانوا كفاراً، وفي هذا من الفوائد: صلة الرحم، والدعوة إلى الهدى، والصلاة، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، فإذا =

(١) أخرجه البخاري: الجزية والموادعة (٣١٨٣)، ومسلم: الزكاة (١٠٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: الهبة وفضلها (٢٦١٩)، ومسلم: اللباس والزينة (٢٠٦٨).

.....

= أحسنت إلى الناس، كان هذا من أسباب رجوعهم عن الباطل الذي تدعوهم إلى تركه، سواء أكان كفراً أم معصية، وإذا أسأت إليهم وقاطعتهم فهو من أسباب بقائهم على ما هم عليه من الباطل إلا من شاء الله.

فالمقصود أن في الإحسان خيراً كثيراً، ولهذا جاءت الشريعة بالإحسان مع العدو، ومع الصديق، ولا يخفى قول النبي ﷺ للرجل الذي قال: يا رسولَ الله، إن لي قرابةً أصِلُهم ويقطعونني، وأُحسِنُ إليهم ويسيئُون إليَّ، وأحلُم عنهم ويجهلون عليَّ، قال: «لئن كنتَ كما قلتَ، فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم، ما دمت على ذلك»[1] أي: معين، وهكذا يقول ﷺ: «ليسَ الواصلُ بالمكافئ، ولكنِ الواصلُ إذا قُطِعت رحمُه وصلَها»[2]، فالقطيعة معصية منهم، ومع هذا يقابلها بالإحسان.

س: إذا كان أهل رَحِمه على معصية ويخوضون في الباطل؟

ج: لا يلزم من وصلهم الاستماع للباطل، فيصلهم ولا يجلس معهم على الباطل، فيصلهم من بعيد، ويرسل لهم الدراهم والكسوة، ولو كان ـ يعني منهم ـ شيء من الباطل فلا يلزم أن يجلس معهم على الباطل. =

(١) أخرجه مسلم: البر والصلة (٢٥٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: الأدب (٥٩٩١).

.....

= فعلى المسلم أن لا يقطع رحمه ويقطع الصلة وإن كانوا عصاة، بل ينصحهم، ويدعوهم إلى الله جل وعلا، ويرغبهم بالخير، فيصلهم بالمال، ولا يقطعه، أو بغير المال مما ينفعهم، أو الشفاعة لهم، أو رد الظلامة عنهم، وما أشبه ذلك.

س: قد يكون لي مثلاً إخوان فقراء، ولكنهم رجال يشربون الدخان ويشربون التنباك؟

ج: صلهم، وادعهم إلى الله، وواسهم بما عندك من المال، ومن الزكاة، وادعهم إلى الله، فقل: هذا منكر، وهذا لا يجوز، يا إخواني هذا يضركم، وأحسن إليهم حتى تجمع بين المصلحتين.

س: قد يصرفون هذا الذي أعطيتهم إياه على شرب الدخان؟

ج: لا عليك منهم، إذا أعطيتهم إياه فقد فعلت الخير، وأمرهم بينهم وبين الله، لكن لا تعينهم أنت وتأت لهم بالدخان تشتريه لهم. وأمر الكافر أعظم من شارب الدخان.

۞ قال: وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ الآيات [الأنعام].

قال ابنُ كثير: يقولُ الله تعالى لنبيِّه ورسولِه محمدٍ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاءِ المشركينَ الذين عبدوا غيرَ الله، =

= وحَرَّموا ما رزقَهم اللهُ، وقتلُوا أولادَهم، وكلُّ ذلك فعلوه بآرائِهم الفاسدةِ، وتسويلِ الشيطانِ لهم: ﴿تَعَالَوْاْ﴾ أي: هَلُمُّوا وأَقبِلُوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أَقصُصْ عليكم، وأُخبِركم بما حرَّم ربُّكم عليكم حقّاً لا تخرُّصاً، ولا ظَنًّا، بل وحياً مِن الله، وأمراً مِن عِنده ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ قال: وكأنَّ في الكلامِ محذوفاً دلَّ عليه السياقُ، وتقديرُه: وصّاكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، ولهذا قال في آخرِ الآيةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥١][1].

قلتُ: ابتدأَ تعالى هذه الآياتِ المحكماتِ بتحريمِ الشركِ والنهي عنه[2]. [٣٦]

[شرح٣٦] هذا قول لبعض العلماء.

والقول الثاني أن «لا» هنا زائدة؛ كما جاءت في مواضع كثيرة، والمعنى: أتلو ما حرم ربكم عليكم أن تشركوا به شيئاً، =

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٥٩-٣٦٠).

(٢) ص٣٢-٣٣.

.....

= فـ «لا» هنا صلة.

وفي الآية الأخرى ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩] أي: ليعلم أهل الكتاب، فقد تأتي في الكلام زيادةً وصلةً لظهور المعنى، فإذا روعي هذا، وأنها صلة في الكلام كما في مواضع أخرى، فالمعنى: حرم عليكم أن تشركوا به شيئاً.

أما إذا بقيت «لا» على حالها، فهذا يحتاج إلى تقدير: وصاكم بألا تشركوا شيئاً، فالتقدير: وصاكم، ولكن مهما أمكن الاستغناء عن الحذف فهو أولى، ثم صار الكلام على الحذف واستقام أمر الكلام بدون حذف، فهو أولى عند أهل العلم وعند أهل العربية.

وهذا مستقيم من دون حذف: «قل تعالوا أتلو ما حرم ربكم عليكم أن تشركوا به شيئاً» أي: أنها صلة قد تزاد في مواضع؛ لظهور المعنى في لغة العرب، ومن هذا قوله تعالى في آخر سورة الحديد ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩] أي: ليعلم أهل الكتاب.

۞ فحرم علينا أن نشرك به شيئاً، فشَمِلَ[١] ذلك كلَّ مُشرَكٍ به، وكلَّ مُشرَكٍ فيه من أنواع العبادةِ، فإن «شيئاً» من النكرات، فيعمُّ جميعَ الأشياء، وما أباح تعالى لعبادهِ أن يشركوا به شيئاً، فإن ذلك أظلمُ الظُّلمِ، وأقبحُ القبيح.

ولفظُ «الشرك» يدلّ على أن المشركينَ كانوا يعبدون اللهَ، ولكن يشركون به غيرَه من الأوثانِ والصالحينَ والأصنامِ، فكانت الدعوةُ واقعةً على تَركِ عبادةِ ما سوى الله وإفرادِ الله بالعبادة[٢]. [٣٧]

[شرح٣٧] ولا شك أن لهم أنواعاً من العبادة، فيحجون، ويتصدقون، ويقدرون قدر الله في حال الشدائد، ويخلصون له العبادة، فلهم أنواع من العبادة، لكنهم لا يمحضونها لله، بل يفعلونها لله، ويفعلون مع ذلك الشرك بغيره، والعبادة لغيره، فلهذا سموا مشركين؛ لكونهم شركوا في العبادة غير الله ﷻ، وإلا فهم بلا شك يقع لهم عبادات: من حجهم، وصدقاتهم، وغير هذا من الطاعات =

(١) قال سماحة الشيخ: شَمِل ـ بالكسر ـ أفصح، وقد يجوز شمَل بالفتح.

(٢) ص٣٣.

.....

= التي يفعلونها لله ﷻ، وهكذا يفعلون وقت الشدائد من إخلاص العبادة لله وحده كل هذا واقع.

وكل إنسان يجد من ضميره ومن إحساسه شيئاً من الأهواء في عبادة من هو فوقه، ومن هو أعظم منه ومن هو أعلى منه، ومن هو صبٌّ فيه، وإن اختلفت عقائدهم في هذا الإله، في هذا القاهر: هل هو يسمى الله؟ أو غير ذلك؟ لكن كل إنسان مفطور في أصل خلقته على أن له رباً وخالقاً ومدبراً، لكنهم في معرفته وتفاصيل عبادته أنواع لا تحصى، والله المستعان.

والرسل هي التي دلت على ذلك، أن لها معبوداً، وخالقاً، ومربياً، ومدبراً، فجاءت الرسل تبين هذا الإله، وهذا المعبود، وهذا الخالق، وتوضحه بأسمائه وصفاته، وتوضح جهته التي يسأل منها، ويدعى، وأنه من جهة العلو ﷻ، فالرسل جاءت بإيضاح هذا الأمر، وبيانه أكمل إيضاح، وأعظم بيان.

۞ وكانت «لا إلهَ إلا اللهُ» مُتضمِّنةً لهذا المعنى، فدعاهم النبيُّ ﷺ إلى الإقرارِ بها نُطقاً وعملاً واعتقاداً، ولهذا إذا سُئِلوا عما يقولُ لهم؟

قالوا: يقول: اعبُدُوا الله، ولا تُشرِكوا به شيئاً، واترُكُوا ما يقولُ آباؤُكم، كما قاله أبو سفيان[1].[2] [٣٨]

[شرح٣٨] لما سأله هرقل عما يقوله محمد، قال مثل هذا الكلام، يقول: اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصلة، والصدق، والعفاف.

---

(١) انظر ما أخرجه البخاري: بدء الوحي (٧).

(٢) ص٣٣.